

الفصل الثاني  
الحملات الصليبية الألبيجنانية

obeikandi.com

## الحملة الأولى: بيزيه وكاراكسون

(١٢٠٩ - ١٢٤٤)

كان من السهل على قوات الشمال الفرنسي مهاجمة أمراء أوكيتانيا في الجنوب بسبب افتقارهم إلى الوحدة والتماسك. ومن جانبهم حشد سكان الجنوب جيشًا للتصدي للهجوم الذي يتعرضون له من الفرنسيين الغزاة، واحتدم من جديد التنافس القديم بين ريموند السادس كونت تولوز وغريمه فايكونت بيزيه؛ حيث شعر كلٌّ منهما بأن الآخر يتربص به الدوائر.

بل فكر ريموند في الانحناء أمام العاصفة بالانضمام إلى صفوف الحملة الصليبية بغية إرضاء الكنيسة باضطراد عدد من المهراطيين، ورأى في ذلك حماية لنفسه ومملكته من أى تدخل خارجي، وشجعه على اتباع هذه السياسة أن الكنيسة وعدت بحماية ممتلكات كل من يشترك في الحروب الصليبية. وفكر كونت تولوز لو أن جميع حكام أوكيتانيا انضموا إلى صفوف الصليبيين لأصبحت كل ممتلكاتهم في الحفظ والصون وفي مأمن من المصادرة. ولو كان الأمر بيد البابا إينوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) وحده لنجحت خطة كونت تولوز البارعة، ولكن أعوان البابا مارسوا ضغطًا شديدًا عليه حتى لا يثق بعهود حكام أوكيتانيا، وخاصة لأن كونت تولوز كان يعطيهم من طرف اللسان حلاوة دون أن ينفذ أيًا من وعوده. وكان أرنود أموري أكثر أعوان البابا تشككًا في نوايا كونت تولوز. ولكن هذا الكونت كان غافلًا عن حقيقة المشاعر المعادية له داخل الكنيسة. واقترح أن يتحالف مع غريمه فايكونت بيزيه، ولكن الفايكونت رفض التحالف معه؛ الأمر الذي اضطره إلى التصرف بمفرده، ولهذا سعى إلى التصالح مع الكنيسة بغية حماية أملاكه من المصادرة. وكان كونت تولوز على أية حال يدرك أن المفوض الباباوى في أوكيتانيا لا يثق به، ولهذا طلب من البابا تعيين مفوض آخر يستطيع التفاوض معه واعدًا الكرسي الباباوى بتنفيذ كل مطالبه.

واستجاب البابا لطلب كونت تولوز بناء على حسابات سياسية رأى أنها في صالحه، فعين ميلو مفوضاً باباويّاً بدلاً من أموري، ولكنه أمره بالانصياع لأوامر أموري في كل شيء. ولم يعلق البابا أهمية كبيرة على إخلاص كونت تولوز وصدقه؛ فهو في حالة صدقه سوف يتخلى عن حماية جماعات كبيرة من المهراطيين، وحتى في حالة ختله وخذاعه فإن الكنيسة سوف تستفيد من تظاهره بالخضوع لها؛ لأن مثل هذا التظاهر سوف يمنعه من مقاومة الحملة الصليبية، وهذا بدوره سوف يؤدي في النهاية إلى إضعاف جبهة الأمراء الآخرين المارقين والذين يوفرّون الحماية للمهراطيين، وبذلك يسهل على الكنيسة الانفراد بكونت تولوز والقضاء عليه، ونصح البابا أعوانه باتباع سياسة عزل حماة المهراطيين وتفتيتهم حتى يسهل على الكنيسة القضاء عليهم الواحد تلو الآخر. يقول البابا في رسالة وجهها إلى مفوضيه بهذا الشأن:

لا تبدءوا بالهجوم على كونت تولوز طالما أنه لا يندفع بنزق إلى الدفاع عن الآخرين. كونوا حكما وأخفوا نواياكم. اتركوه وشأنه في البداية حتى تتمكنوا من مهاجمة من يصرحون بتمردهم عليكم؛ فلن يكون من السهل علينا سحق أعداء الله لو أننا أعطيناهم فرصة الاتحاد في سبيل الدفاع المشترك، ومن الناحية الأخرى سيكون من السهولة بمكان سحقهم طالما أن الكونت لا يساعدهم، وربما ينصلح حاله إذا رأى المصائب تترى على رءوسهم. ولكنه إذا لم يهتم واستمر في مخططاته الشريرة وهو معزول ويستند إلى قواته الخاصة فحسب، فسوف نتمكن من دحره دون كثير من المتاعب.

وفي المقابل، سعى كونت تولوز إلى الاستفادة من سياسة البابا إينوسنت الثالث، فقد أثلج صدره أن يرى الحملة الصليبية تخضع للحكام الذين يشقون عصا الطاعة عليه ويخلقون له المشاكل وعلى رأسهم ريموند روجر فايكونت بيزيه، وخاصة لأن التجربة دلته على أن أية حملة صليبية تبدأ قوية في حينها، ثم لا تلبث أن يعترها الضعف والوهن. وطبقاً لتقديرات كونت تولوز فإن غريمه فايكونت بيزيه لن يستطيع الصمود أمام الحملة الصليبية أكثر من عام ينفرط بعده عقد الحملة الصليبية ويتلاشى حماسها فتعود من حيث أتت إلى الأراضي الفرنسية، وبذلك يسهل عليه الاستيلاء على ممتلكاته وابتلاع منطقتة.

أظهر كونت تولوز تصميمًا على التصالح مع الكنيسة مهما كان الثمن. ومن أجل هذا

اعترف بفشله في مراعاة أيام الأعياد الكنسية كما اعترف بحمايته للهرطقة. وحتى يثبت نواياه الحسنة قام بتسليم قلاعه السبع إلى الكنيسة. وفي ١٨ يونيو ١٢٠٩ اضطلع المفوض الباباوى ميلو بتعنيفه تعنيفاً شديداً. وفي اليوم التالى أمسك كونت تولوز بالصليب واعدًا بتقديم العون للحملة الصليبية قدر استطاعته.

في الوقت نفسه، بدأت الحملة الصليبية مسيرتها؛ حيث إنها غادرت مدينة ليون يوم ٢٤ يونيو ١٢٠٩ لتصل في ٢٠ يولييه من العام نفسه إلى مدينة مونبلييه وهى معقل مهم من معاقل المذهب الكاثوليكي في الجنوب. وبسبب إعلان كونت تولوز عن ولائه المطلق للكنيسة الكاثوليكية، وجهت الحملة الصليبية أهدافها العسكرية نحو أراضي فايكونت بيزيه ريموند روجر الذى عرف بسمعته السيئة في حماية المهترطين شأنه في ذلك شأن كونت تولوز نفسه، فضلاً عن أن فايكونت بيزيه وفرّ الحماية لكثير من المهترطين الكاثارين. وانسحب ريموند روجر إلى كاراكسون أكثر مدنه تحصيناً. ولكن مدينة بيزيه التى انسحب منها كانت محصنة تحصيناً كافياً، مما جعل سكانها واثقين في قدرتهم على مقاومة الحصار الذى فرضته الحملة الصليبية عليهم. وساعدهم على هذه المقاومة احتقارهم العظيم للكنيسة إلى جانب غيرتهم الشديدة على استقلالهم عنها لفترة طويلة، وظهرت هذه الثقة بالنفس عندما تحدوا أسقفهم رينودى مونتيروكس عندما رفضوا تسليم ٢٢٢ مهرطقاً كاثارياً، ووالدنسياناً، نظير عدم إلحاق الأذى بمدينتهم؛ حيث إنهم اعتبروا الحملة الفرنسية الصليبية وليس الهراطقة تمثل الخطر الحقيقى عليهم.

#### مجزرة بيزيه

تصدت مدينة بيزيه للحملة الصليبية القادمة من الشمال الفرنسى وقاومتها بشدة. ولو أن سكان بيزيه تحملوا الحصار المفروض عليهم لفترة أطول لدب التعب في أوصال المهاجمين ولعادوا أدراجهم، ولكن بعض سكان بيزيه تسرعوا وخرجوا من مدينتهم للقاء المهاجمين، فاستطاع المهاجمون دحرهم وردهم على أعقابهم، وما إن دخل الصليبيون بيزيه حتى ارتكبوا فيها مجازر فظيعة، هلك فيها الكاثوليك والهراطقة ومن الرجال والنساء والشيوخ والأطفال على حد سواء. وأبلغ المفوض أرنود أمورى والفرحة تملأ قلبه الكرسى الباباوى بمقتل نحو عشرين ألف شخص في هذه المجزرة. ومن المحتمل أن يكون هذا الرقم مبالغاً فيه، ولكن من المذهل أن نرى المفوض الباباوى يعبر عن جذله لمقتل هذا العدد الهائل من الناس. والغريب أيضاً أن القيادة الأرستقراطية لهذه الحملة الصليبية لم تستبشع هذه المجازر، في حين أنها استبشعت

بل تدخلت لوقف أعمال السلب والنهب باعتبارها منافية لسلوك الأشراف والنبلاء. وهكذا انتصرت الحملة الصليبية على المهرطقين في بيزيه، فقررت المضي إلى كاراكسون التي استسلم حكامها للكنيسة وطلبوا منها أن تشملهم برعايتها.

وبسبب هذه الانتصارات الصليبية الكاسحة، تعهد سكان المدينة الكبيرة ناربون باتخاذ الإجراءات الصارمة ضد المهرطقين. وتعييراً عن ولائهم للكنيسة قام كثير من نبلاء ناربون بتسليم قلاعهم وممتلكاتهم إلى الجيش الظافر، وهرب البعض إلى الجبال يجمعون بها. أما كاراكسون فلم تسقط في أيدي الصليبيين بالقوة العسكرية بسبب تحصيناتها الجيدة، ولكن لسوء حظها حاصرتها قوات الحملة في أيام القيظ الشديد فلم تستطع مواصلة المقاومة بسبب نفاد مخزون مياه الشرب لديها. والجديد بالذكر أيضاً أن الأمر انتهى بريموندروجر حاكم بيزيه إلى الاستسلام، فتم أسره وظل حبيساً في الأسر حتى وافته المنية بعد شهر قلائل. وسمحت الحملة الصليبية لجميع سكان كاراكسون بالرحيل عنها دون التعرض للأذى بعد تسليم أراضيهم وممتلكاتهم للكنيسة.. وغنى عن الذكر أن هذا العفو شمل المهرطقين الكاثاريين.

وبعد سقوط بيزيه و كاراكسون فكرت قيادة الحملة أن تعهد إلى دوق بورجندي وكونت نيفير بتولى مقاليد الحكم في هاتين المدينتين لكنهما اعتذرا عن عدم اضطلاعهما بهذه المهمة المشرفة، فوقع اختيار الحملة على ضابط صنيدي أبل بلاءً حسناً في محاربة المهرطقين في كاراكسون وأظهر ولاءً شديداً للكنيسة، وهو «سيمون دي مونتفورت». كان سيمون يجمع بين الطموح والواقعية، فقد أدرك منذ البداية أن الحملة الصليبية سرعان ما سوف يعترها الوهن وينفرط عقدها عقب سقوط مدينتي بيزيه و كاراكسون، كما أدرك أن هاتين المدينتين تمثلان جزءاً ضئيلاً من أراضي ترانكاثيل التي يتعين عليه الاستيلاء عليها. فضلاً عن أنه أدرك أنه فرنسي غريب عن أهل الجنوب الذين لن يقبلوه حاكماً عليهم. وأظهر سيمون دي مونتفورت تردداً في قبول هذه المهمة، ولكنه اضطر إلى قبولها تحت ضغط شديد من الكنيسة. وكما توقع سيمون القائد المحنك انفرط عقد الحملة الصليبية؛ حيث عاد إلى بلادهما كل من دوق بورجندي وكونت نيفير تاركين برفقة سيمون نحو ثلاثين فارساً وعدداً ضئيلاً من الجنود المرتزقة.

كان شتاء عام ١٢٠٩ - ١٢١٠ بشير خير، كما كان في نفس الوقت نذير شؤم على سيمون، ففي بداية الشتاء توغل سيمون في منطقة ترانكاثيل ونجح في الاستيلاء على مدينتي ليموكس في جنوب أوكيتانيا وألبى في شهاها دون أية مقاومة تذكر. وفي طريقه الظافر استسلم له كثير من المدن

الصغيرة. ولحسن حظ سيمون توفى في سجنه حاكم بيزيه المعزول ريموند روجر، فألت جميع أملاكه إلى سيمون دي مونتفورت عن طريق شرائها من أرملة ريموند روجر وابنه الرضيع.

ولكن الحظ الذى ابتسم له سرعان ما تبدل، فقد أخذت المدن التى استسلمت له في التمرد عليه، كما أنه تم قتل وأسر الكثيرين من القواد الموالين له. فعلى سبيل المثال قام كونت فوا باسترجاع إحدى القلاع التى كان قد سلمها إلى سيمون.

والتفت سيمون من حوله فوجد نفسه يقود جيشًا صغير العدد يحاصره المتمردون من كل جانب، وتتضح لنا مشكلات سيمون في خطاب أرسله إلى البابا جاء فيه ما يلي:

«إن النبلاء الذين اشتركوا في الحملة الصليبية تركوني بمفردي تقريبًا، يحيط بى أعداء يسوع المسيح من كل جانب ويحتلون الجبال والتلال. وليس في استطاعتي أن أحكم هذه البلاد لمدة أطول إلا بمساعدتك ومساعدة المؤمنين المخلصين. إن الحرب وويلاتها أصابت البلاد بالفقر المدقع، كما أن الهراطقة الذين خربوا ودمروا وتحلوا عن بعض قلاعهم لا يزالون يحتفظون بقلاع أكثر تحصينًا وبنوون الذود عنها. ويتعين على أن أدفع إلى الجنود الذين يبقون معي رواتب أكبر من الرواتب التى أدفعها في الحروب الأخرى. وإنى لم أتمكن من الاحتفاظ ببعض هؤلاء الجنود إلا بعد أن دفعت لهم ضعف رواتبهم».

ولولا تفكك جنود المقاومة في أوكيتانيا وشدة مؤازرة الموالين له لما تمكن سيمون دي مونتفورت من الاحتفاظ بإحدى القلاع الأساسية والتخفى فيها حين انصرام فصل الشتاء وحلول فصل الربيع. وفي الربيع حضرت زوجته أليس وأمدته بتعزيزات إضافية كان لها الفضل في ترجيح كفته على المناوئين له، فقد نجح في إخماد التمرد المندلع ضده واستعادة المواقع التى خسرها.

فقاء العيون وقطع الأنوف والشفاه

والقتل حرقًا في قلعة برام

وفي عام ١٢٠٩، نجح سيمون في الاستيلاء على قلعة برام التى احتفى فيها عدد ممن حشوا بوعود ولائهم له، كما أن أحد أفراد الكتيبة غدر به ويمكن أعداءه من الاستيلاء على

قلعة مونتريال، فأمر سيمون بشنق هذا الكاذب الغادر، كما قام بفقء العيون وقطع الأنوف والشفاه العليا لكل أفراد الحامية التي تمكن من التغلب عليها. ولكنه اكتفى وفقاً عيناً واحدة لواحد منهم لاستخدامه مرشداً كى يدلّه على الطريق إلى قلعة كابرليه التي لم تكن قد سقطت بعد في يد سيمون. والجدير بالذكر أن تقطيع أوصال الأعداء وفقء عيونهم سياسة اتبعها من قبل كل من ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس. والجدير بالذكر أيضاً أن معاملة سيمون للحاميات المعادية الأخرى التي انتصر عليها كانت أقل قسوة ووحشية. وعلى أية حال يبدو أن هذه المعاملة الوحشية لأعدائه المهزومين جعلت منهم عبرة للآخرين ودفعتهم إلى الاستسلام له من أجل الحفاظ على حياتهم وأطرافهم من البتر.

وهكذا استطاع سيمون في ربيع وصيف عام ١٢١٠ أن يستعيد كل ما نجح أعداؤه المتمردون في الاستيلاء عليه بدون مقاومة تذكر، ثم ضم إليه قلعتين جديدتين هما منيرفا ونرميس. وبوجه عام أطلق سيمون هذه المرة سراح أسراه من المهرطقين، ولكن المفوض الباباوى أرنود أمورى أصر على إنزال العقاب بزعماء التمرد الذين خيروا بين التراجع عن هرطقتهم أو الموت حرقاً، فتراجعت ثلاث نساء عن هرطقتهن في حين اختار أكثر من مائة وأربعين مهرطقاً الموت حرقاً، بل إنهم قفزوا داخل النار المضرة بمحض إرادتهم.

ورغم أن سيمون استولى على قلعتي منيرفا ونرميس بشق الأنفس، فإن سقوطها في يده قضى قضاء مبرماً على كل مقاومة ضده. وإذا كان جنوب أوكيتانيا قد أظهر مقاومة، فإن شهاها استسلم دون مقاومة. والجدير بالذكر أن مدينة ألبى لم تشهد أى قتال عنيف فيها أو حولها بسبب حنكة أسقفها الذى استطاع الاحتفاظ بعلاقة ودية بكل من سيمون وأهالى ألبى. ورغم ذلك صمم المهرطقون المشبثون بهرطقتهم في ألبى على الاحتماء بالجبال الواقعة في جنوب أوكيتانيا، وخاصة في المنطقة الممتدة من تولوز إلى جبال الپيرنيز (البرانس). وشجّعهم على هذا الرحيل الجماعى أن أحد نبلاء ألبى وفر لهم الحماية. وإذا كانت الحملة الصليبية لم تقتلع كافة المهرطقات من منطقة ألبى، وألبيجوا، فقد نجحت محاكم التفتيش في نهاية المطاف في استئصالها جميعاً.

وقوع كونت تولوز ريموند السادس فى المصيدة

فى وقت باكر من عام ١٢١١ استتبت مقاليد الأمور لسيمون دى موننفورت وأصبح الحاكم الشرعى لأوكيتانيا.

ولكن الكنيسة ظلت تواجه بعض المشاكل الخطيرة رغم كل الانتصارات التي أحرزها سيمون دي مونتفورت، فقد ظل عدد الهرطقة كبيراً، فضلاً عن أن كونت تولوز ريموند السادس الذي تشككت الكنيسة في حقيقة نواياه، ظل يحتفظ بجزء كبير من أوكيتانيا. ومن ناحيته خشى سيمون أن يحاول كونت تولوز استعادة ما فقده من ممتلكات، وكانت السلطة الكنسية شديدة الاقتناع بأن الهرطقة سوف تستمر طالما استمر كونت تولوز ريموند السادس في أوكيتانيا؛ ولهذا بادر سيمون بالهجوم عليه بمباركة البابا وأتباعه رغم أنهم كانوا يتفاوضون للوصول إلى اتفاق معه. وتشككت الكنيسة في تواطؤ كونت تولوز على اغتيال پير دي كاستلنو، ولكنها لم تستطع أن تقيم الدليل على صحة شكوكها. وأيضاً كانت الكنيسة تشبه في هرطقته دون أن تتمكن من إثبات هذه التهمة عليه، إلى جانب تسامحه مع المهرطقين. وعلى أية حال فقد فعل سيمون دي مونتفورت الشيء نفسه؛ حيث إنه ترك معظم المهرطقين الكاثارين وشأنهم مكتفياً بحرق زعاماتهم التي وقعت في يديه. ومن نافلة القول أن نذكر أن الحملات الصليبية الأليجنسانية فشلت في سحق الهرطقة المتفشية في جنوب فرنسا، ورغم ذلك فلا شك أنها مهدت الطريق أمام محاكم التفتيش للقضاء عليها.

وبسبب تشكك الكنيسة في أمر كونت تولوز، ألحت عليه أن ينشط في التصدي للمهرطقين وأن ينفذ وعده باستئصال شأفتهم. وتحت وطأة الضغوط التي مارسها الكنيسة عليه، سافر إلى باريس شاكياً إلى ملكها فيليب أغسطس من كثرة تدخل الكنيسة في شؤونه، ولكن الملك اكتفى بحسن استقباله دون أن يستجيب له؛ حيث إنه لم يرغب في توريط نفسه في شئون الجنوب. ثم سافر ريموند السادس إلى روما في باكورة عام ١٢١٠ لمقابلة البابا الذي أحسن وفادته دون أن يؤازره حتى لا يغضب كرادلته منه.

وأسقط في يد كونت تولوز فسعى إلى التفاهم المباشر مع سيمون لإنهاء المشكلة، غير أن جهود التصالح باءت جميعها بالفشل. والجدير بالذكر أن مفوضي البابا أسهموا في إفشال الجهود الرامية إلى التوفيق بين هذين الخصمين وحالوا دون تصالحهما؛ حيث إنهم أرادوا إذلال كونت تولوز ووضعهم تحت رحمتهم تماماً، كما أنهم أصروا على قيام كونت تولوز بطرد المهرطقين من أراضيه، ولكنه كرر رفضه ذلك مما جعلهم يوجهون إليه إنذاراً بنزع سلاحه والسماح لسيمون بدخول أراضيه كي يتمكن من طرد المهرطقين. وأيضاً اشترط الإنذار أن يحتفظ ريموند السادس بقلبه وجانب من دخله نظير أن يتولى سيمون إدارة دفة الحكم في بلاده. ورأى ريموند أن هذه الشروط مهينة فغادر الاجتماع في

غضب، فاستصدرت الكنيسة في ٦ فبراير ١٢١١ أمراً بفرض الحظر الكنسى عليه. وفي ١٧ أبريل من هذا العام اعتمد البابا إينوسنت الثالث هذا الحظر وأمر مندوبيه بالاستيلاء على أراضي ريموند السادس، وهكذا أصبح الطريق أمام سيمون معبداً لبدء مرحلة ثانية من الحملة الصليبية، استهلها بشن هجوم على آخر معقلين في أراضي ترانكافيل وهما قلعة كاباربه وقلعة لافور. وفي حين سقطت كاباربه في يد سيمون بدون مقاومة ظلت لافور القريبة من تولوز تقاوم حتى شهر مايو ١٢١١. ولعب أسقف لافور الجديد دوراً في هذه الحرب التي شنها سيمون؛ حيث إنه شجع مئات المقاتلين من تولوز على الانضمام إلى جيشه الذي كان يحاصر لافور، فتصدى لهم المهرطقون المحاصرون غير أن كونت تولوز اتخذ موقفاً مذبذباً ومتردداً في هذا الصراع الأمر الذي أوغر صدر الكنيسة ضده.

### مجزرة قلعة لافور

شن سيمون دى مونتفورت هجوماً عاتياً على قلعة لافور وعلى قائد حاميتها الغادر أيمرى مونريال. وبعد نجاح سيمون في اقتحام القلعة، قام بشنق قائدها وتنفيذ حكم الإعدام في ثمانين فارساً مهرطقاً من المدافعين عنها. وبلغت قسوة سيمون دى مونتفورت ذروتها حين قام بإلقاء سيدة القلعة المهرطقة الكاثارية جيرالدا في بئر ثم هال عليها كومة من الحجارة حتى أخذ أنفاسها، وفي الوقت نفسه تم إحراق ما يقرب من أربعمئة زعيم من زعماء المهرطقة. ورغم القضاء على كل هذا العدد الكبير من المهرطقين، فإن ذلك لم يضعف شوكتهم كثيراً، حيث إنهم غيروا تكتيكاتهم ووجدوا البديل في التحصن في المدن.

ونتيجة مجزرة لافور استسلم لسيمون عدد كبير من المدن والقلاع في إقليم تولوز. وخطط سيمون لمحاصرة مدينة تولوز، غير أنه تعجل في الهجوم عليها تحت ضغط من المفوض الباباوى أرنولد أمورى وأسقف فولك، فارتكب بذلك خطأ إستراتيجياً، فتولوز ليست بيزيبه أو كاركاسون، بل هى واحدة من أكبر مدن أوكيتانيا، إذ يبلغ عدد سكانها ربع مليون نسمة. ورغم التعزيزات التى وصلت إلى سيمون في فصل الصيف فقد فشل في الاستيلاء على تولوز. حتى الكاثوليك بداخلها لم يضيقوا بالمهرطقة بين ظهرانيهم ذرعاً، كما أن تولوز ظلت لمدة قرن كامل تسعى ما وسعها السعى إلى الاستقلال، ومن ثم رفضت تحكيم سيمون دى مونتفورت فيها، بل إن أهل تولوز أصروا على تحدى الكنيسة الكاثوليكية، فعندما ساومتهم وعرضت عليهم الإبقاء على حياتهم وممتلكاتهم نظير انفضاضهم عن كونت تولوز، أبوا وأكدوا أنهم لن يخونوه بأى حال من الأحوال. ولا ريب أن كونت تولوز تمتع بدعم أهلها له، فقد اعتبروه

نصيرًا للحريات المدنية كما رأوا في احتلال الغرباء لمدينتهم تهديدًا لهذه الحريات، وأمام مقاومة أهل تولوز العنيفة لها، فكت قوات سيمون حصارها لهذه المدينة. وشعر كونت تولوز بتحسن وضعه القتالي فلم ير داعيًا إلى استمرار التفاوض مع سيمون، فقطع المفاوضات وخاصة عندما تقدم حكام غرب أوكيتانيا لمؤازرته. وبعد انسحابه من محاصرة تولوز هاجم سيمون إقليم أوكيتانيا من الجنوب والشمال، وطارد كونت فوا حتى باب قلعته واستولى على جميع أراضيه، ثم تقدم بقواته إلى كاهور في الشمال؛ حيث تخلى أسقفها الحاكم عن سيمون بمجرد مغادرته لأراضي كاهور ليعلم فروض الطاعة والولاء لغريمه ملك فرنسا، كما أن عددًا من قواد أوكيتانيا المهزومين في الجنوب أمثال كونت فوا، وكونت كومنجر، وثايبكونت بيرن، وسفاري دي موليون، بدءوا في استجماع قواهم والانضمام إلى صفوف كونت تولوز، ولو أن هذا الكونت لم يستسلم لتخاذه وانضم إلى المناوئين لسيمون دي مونتفورت لاستطاعوا جميعًا إلحاق الهزيمة به.

نشبت أول مواجهة بين قوات سيمون وبين المناوئين له ممن أشرنا إليهم في بلدة يقال لها كاستلنودارى على الحدود الفاصلة بين أراضيه وأراضى كونت تولوز، وهناك تركزت قوات سيمون الأساسية. وفي البداية سارت المعركة لصالح كونت فوا غير أن سيمون نجح في دحرها. وكما أسلفنا لو أن ريموند كونت تولوز حارب إلى جانب كونت فوا لتمكنا من إلحاق الهزيمة بسيمون الذى بدأ الضعف يعتريه. ولكن بوصول التعزيزات إليه من الشمال في ربيع عام ١٢١٢، تمكن سيمون من الاستمرار في محاصرة مدينة تولوز، كما سقطت في يده أجن، وكاهور، وموذاك، وألبى، وامتد حصار سيمون لمدينة تولوز من جنوبها إلى شمالها. وبعد سقوط أوستريف، وموريث، أحكم سيمون حصاره للمدينة، وفي نهاية عام ١٢١٢ دانت لسيمون كل أوكيتانيا، وألحق الهزيمة بجيش ريموند السادس كونت تولوز المتردد الذى لم يعد لديه ما يكفي لدفع رواتب جنوده فانفضوا عنه. وهكذا أصبح كونت تولوز تحت رحمة سيمون والكنيسة تمامًا، فحاول أن يتصالح معها كى تغفر له خطاياها، ولكنها أشاحت بوجهها عنه.

وهكذا أحرزت حملات سيمون دي مونتفورت الصليبية نصرًا مبيّنًا على أوكيتانيا التى تفشت فيها الهرطقة؛ مما أثلج صدر البابا إينوسنت الثالث الذى بدأت المشاكل تتجمع من حوله، فقد ناصبه إمبراطور ألمانيا العداء، وقام ملك إنجلترا بمصادرة معظم أملاك الكنيسة الكاثوليكية في بلاده، وكذلك استولى المسلمون على القدس. وفي أوكيتانيا نفسها بدأ الأهالى يتذمرون من سيطرة الفرنسيين الأجانب على أراضيتهم.

وفي نوفمبر - ديسمبر عام ١٢١٢، استصدر سيمون تشريعات تعطي مزايا كثيرة لطبقة الإكليروس وتقو أثر قوانين الإقطاع الفرنسي؛ مما أثار حفيظة أوكيتانيا بسبب ما فعلته هذه التشريعات الفرنسية من تهديد مباشر لتقاليدها وهويتها المحلية. حتى البابا إينوسنت الثالث خشى من أن تتجمع خيوط السلطة في يد سيمون دي مونتفورت الذي أصبح فايقونت بيزيه ودانت له السلطة في معظم أرجاء أوكيتانيا. ودعا خوفه من توسيع سلطة سيمون إلى الكتابة في منتصف عام ١٢١٢ إلى مفوضيه طالباً منهم أن يعطوا كونت تولوز فرصة لتبرئة نفسه وحظر عليهم مصادرة أملاكه. وزاد من قلق البابا إينوسنت الثالث تصاعد قوة المسلمين في إسبانيا، وقد شاركه في هذا القلق مفوضه أرنود أموري الذي أصبح مؤخراً رئيس أساقفة نابون، والذي حشد قواته لمحاربة المسلمين في إسبانيا. وأحرزت هذه القوات نصراً ساحقاً على مسلمي إسبانيا في معركة لاس نافاس دي تولوزا، التي وقعت يوم ١٦ يوليه ١٢١٢. ولعب بيتر أراجون الثاني الذي لم يكن على علاقة طيبة بسيمون دي مونتفورت دوراً مهماً في دحر المسلمين؛ الأمر الذي جعل منه بطلاً مغواراً يشار إليه بالبنان في جميع أنحاء أوروبا المسيحية. وأخذت أنظار البابا تلتفت إلى استعادة إسبانيا من أيدي المسلمين بعد أن استتب أمر أوكيتانيا للكنيسة الكاثوليكية بفضل سيمون دي مونتفورت فاستبدلت بأساقفتها الساكتين على الهرطقة الكاثارية أساقفة عقدوا العزم على التصدي لها.

ويدل الخطاب الذي أرسله البابا إلى مندوبه أرنود أموري بتاريخ ١٥ يناير ١٢١٣ على تحول أنظاره من مهرطقي أوكيتانيا إلى مسلمي إسبانيا الكفار. يقول إينوسنت الثالث في هذا الخطاب:

«إن الثعالب (أي المهرطقين) يدمرون كرامة الله في إقليم بروغنس وانتهى الأمر بوقوعهم في الأسر. يجب علينا الاحتراس من خطر عظيم، لقد ترامى إلى أسماعنا أن الكفار المسلمين في إسبانيا يعدون العدة لحشد جيش جديد للانتقام من الهزيمة التي لحقت بهم، فضلاً عن أن الأراضي المقدسة تحتاج إلى العون والمساعدة».

وهذه إشارة واضحة إلى ضرورة الانتقال من محاربة الهرطقة في الداخل إلى محاربتها في الخارج وفي الأراضي المقدسة.

ثم أرسل البابا في اليوم المشار إليه نفسه خطاباً مستفزاً إلى سيمون جاء فيه ما يلي: «إن ملك أراجون العظيم يشكو من أنك وجهت حملتك الصليبية ضد الكاثوليك، وأنك أرتق

دماء رجال أبرياء وأنت ارتكبت خطأ في حقه حين قمت بغزو الأراضي التابعة لمرءوسيه من النبلاء، بينما كان جلالته مشغولاً بشن الحرب على الكفار المسلمين رغم وجود هرطقة بين سكان الأراضي التي قمت بغزوها».

ولهذا تعين على سيمون أن يعيد إلى المهزومين أراضيهم التي استولى عليها طبقاً لما يقوله البابا بغير وجه حق، وأشار البابا أيضاً إلى أن صكوك الغفران الصادرة لصالح مقاتليه أصبحت لاغية إلا إذا يمم هؤلاء المقاتلون شطر إسبانيا أو الأراضي المقدسة.

وعندما استيقن بيتر أراجون من أن البابا قلب لسيمون ظهر المجن وأن سيمون لم يعد يتمتع بالخطوة لديه، قام بعقد مجموعة من التحالفات مع النبلاء الموتورين من سيمون، أمثال كونت تولوز، وفوا، وكومنجز، وفايكونت بيرن. ورغم موقف البابا الجديد المتعاطف مع بيتر أراجون، فإن رجال الإكليروس في أوكيتانيا كان لهم رأى آخر، فقد أحسوا أن طموح بيتر يمثل خطراً عليهم أكبر بكثير من الخطر الذي يمثله سيمون؛ حيث إن بيتر كما رأينا لم يجد غضاضة في إقامة تحالفات مع حكام وأمراء اشتهروا باحتضان الهرطقة وحماية المهرطقين، وعقد رجال الإكليروس اجتماعاً في لافور في يناير عام ١٢١٣ قرروا فيه أن كونت تولوز لا يمكن أن يكون موضع ثقة، وأنه المسئول عن انتشار الهرطقة في بلاده، كما قرروا أن سيمون دى مونتفورت هو الوحيد القادر على إنقاذ الكنيسة الكاثوليكية من براثن المهرطقين في أوكيتانيا، وأرسل المجتمعون في لافور مبعوثين إلى البابا إينوسنت الثالث تمكنوا من إقناعه بوجهة نظرهم فاستجاب لهم البابا وقام بتغيير سياسته تغييراً كاملاً، وأنحى البابا باللائمة على بيتر أراجون؛ لأنه ضلله وأعطاه معلومات مغلوطة. ورغم انتصار البابا أخيراً لسيمون دى مونتفورت، فإن ترده أضعفه ونال من قوته، كما أن بعض جنده انفضوا من حوله. ثم إن تقرير البابا لبيتر أراجون جاء متأخراً بعد أن استطاع أن يجمع حوله عدداً من الحلفاء أمثال كونت تولوز. ولكن هذه الانتكاسة لم تدم طويلاً فسرعان ما تمكن سيمون من قلب موازين القوى لصالحه، خاصة لأن جيشه رغم تضائل عدده كان أكثر تنظيمياً من جيش أعدائه، كما أنه عرف كيف يتحين الفرصة ويختار الوقت المناسب لمباغتتهم. وبسبب تردد كونت تولوز وتقايسه استطاع سيمون أن يقطع الطريق على جنوده المشاة، وظل يلاحقهم حتى أغرقهم في نهر الجارون، كما استطاع دحر جميع قوات أوكيتانيا المناوئة له والمناكفة ضده. ورغم انتصاراته الكاسحة فقد ظلت مدينة تولوز ومدينة ناربون صامدتين، كما أن مدينة مونبلييه شقت عصا الطاعة عليه.

وفشل سيمون في إخضاع منطقة بروفنس خضوعاً كاملاً لسلطانه. ومن بروفنس اندلعت أول شرارة تمرد ضده.

كان هذا كله مجرد انتكاسات سرعان ما تغلب سيمون عليها. فقد دانت له أوكيتانيا في نهاية الأمر، مما أقلق البابا وملك فرنسا فيليب أغسطس على حد سواء. فمن ناحية ساورت البابا شكوك حول نوايا سيمون التوسعية، وأن حرصه على توسيع رقعة أراضيه يفوق حرصه على القضاء على الهرطقة، ومن ناحية أخرى شعر فيليب ملك فرنسا أن هذا الرجل الطموح يهدد سلطته، وأيضاً حاول المفوض الباباوى الجديد في أوكيتانيا بيتر بنيفنتو الحد من طموحات سيمون التوسعية فأعطى فرصة لأعداء الكنيسة للتصالح معها، كما أنه رفض تنصيب سيمون حاكماً على تولوز. وساعد على ذلك أن الكونت فوا والكونت كومنجز وريموند كونت تولوز وغيرهم قدموا فروض الطاعة والولاء لكنيستته، ورغبة منه في إثبات ولائه للكنيسة وهبها جميع ممتلكاته. واضطر سيمون إلى إعلان خضوعه الكامل للكنيسة. ولكنه استطاع أن يتحين الفرصة المناسبة للاستيلاء على بقية أراضي كونت تولوز. وعندما احتدم الصراع بين المفوض الباباوى الجديد بيتر بنيفنتو وسيمون دي مونتفورت، وقف عدد كبير من أساقفة الجنوب في صف سيمون واعترضوا على محاولة زميلهم تقليص أظافره، ولا غرو فقد اعتبروه القائد الوحيد الذى تصدى باقتدار للمهرطقين الكاثارين. وفي يناير عام ١٢١٥، عقد هؤلاء الأساقفة اجتماعاً في مونبلييه ونصحوا زميلهم بنيفنتو أن يعطى تولوز وكل الأراضي التى سقطت في الحملة الصليبية إلى سيمون، وتهرب بنيفنتو قائلاً إن هذا الأمر مرهون بإرادة البابا، فأرسلوا وفداً إلى الكرسي الباباوى يطلبون منه تنصيب سيمون حاكماً على كل أراضي كونت تولوز فاستجاب إلى طلبهم. وهكذا أحرز سيمون نصراً ساحقاً على مناوئيه، ودخل سيمون ظافراً إلى تولوز فاضطر حاكمها السابق ريموند إلى اللجوء إلى إنجلترا، ووافق البابا على تنصيب سيمون كونت تولوز ودوق ناربون وفايكونت بيزيه وكاركاسون. وحتى يسترضى ملك فرنسا فيليب أغسطس أسرع سيمون بالسفر إلى باريس في أبريل ١٢١٦ ليقدم له فروض الطاعة والولاء. وتعبيراً عن رضاه عنه أكد هذا الملك أحقيته في امتلاك جميع الأراضي التى استولى عليها في وسط أوكيتانيا.

#### سيمون دي مونتفورت يواجه المعارضة

اعتمد سيمون دي مونتفورت في حملته الصليبية ضد أوكيتانيا على جيش مكون من الفرنسيين أساساً. ولكن بعد أن انتهى من إحراز انتصاراته الساحقة، أثر كثير من جنوده

مغادرة أوكيتانيا في الجنوب والعودة إلى فرنسا في الشمال، الأمر الذي ترك سيمون بدون غطاء عسكري. وبالتالي تعين عليه الاعتماد على سكان أوكيتانيا. ولكنهم كانوا في الواقع لا يحملون له الود، فهو غريب عنهم بقدر ما كان الغزاة الفرنسيون غرباء عنهم. غير أن عداوة أهل أوكيتانيا لسيمون لم تكن ظاهرة بل تكمن تحت السطح وتنتظر من يفجرها. وانتظر أهل أوكيتانيا المواليون لكونت تولوز المهزوم ريموند السادس اندلاع أية شرارة تمرد على سيمون كي يسارعوا بالانخراط فيه بهدف إعادته إلى سدة الحكم بقوة السلاح. وأيضًا بعد عام ١٢١٥ فتر حماس الفرنسيين لمواصلة الحرب الصليبية التي شنوها على أوكيتانيا. ثم إن شخصية سيمون لم تكن جذابة من الناحية الجماهيرية. كذلك فإن البابا إينوسنت الثالث المؤمن بشن حرب صليبية على المهرطيين مات وحل محله البابا أونوريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٧) الذي فضل المفاوضات على خوض الحروب، وأيضًا فقد سيمون تعضيد كثير من رجال الكنيسة المتتمين إلى الجيل الجديد بخلاف انتصار الجيل القديم له.. ذلك الجيل الذي تحمس له وهب للذود عنه لدى الكرسى الباباوى. ثم إن ملك فرنسا فيليب أغسطس فقد اهتمامه بشئون الجنوب بسبب المشاكل السياسية التي اعترضته وانشغال فرنسا بشن الحرب على إنجلترا.

بدأ سيمون يواجه المشاكل الحقيقية عندما هبط كونت تولوز ريموند السادس برفقة ابنه ريموند السابع في ميناء مارسيليا التي كانت مستقلة عن حكم كونت تولوز، ووعدت بقية منطقة پروونس ومناطق الشمال التابعة لعائلة هذا الكونت بتقديم العون له ولابنه. وفي أقل من شهر واحد تجمع جيش عرمرم في مدينة أفينيون في انتظار اللحظة المناسبة للانقضاض على سيمون. وسعى ريموند السادس لدى أراجون كي يساعده في إثارة التمرد في تولوز تاركًا ابنه ريموند السابع ليقود قواته المتمركزة في پروونس.

وفي شهر مايو عام ١٢١٦، سنحت لريموند السادس وابنه فرصة الهجوم على سيمون عندما وضعت مدينة بوكير على الشاطئ الغربي لنهر الرون نفسها تحت تصرفها. وتمكن سيمون من التصدي لهذا الهجوم ولكن حاميته اضطرت إلى الاحتماء في قلعة المدينة، عندئذ لجأ كل فريق إلى تطويق الفريق الآخر. فمن ناحيته حاول ريموند السابع محاصرة الحامية في القلعة حتى تتضور جوعًا، وفي الناحية الأخرى حاول سيمون أن يقطع خطوط إمدادات ريموند ويجره إلى التلاحم في معركة حامية الوطيس. غير أن سيمون فشل في حصار مدينة بوكير الواقعة على شاطئ النهر، الأمر الذي مكّن ريموند وقواته من العيش في بحبوحة ورغد

في حين عاش جيش سيمون على الكفاف. وقام سيمون بهجوم باسل ثلاث مرات على هذه المدينة ولكن أعداءه ردوه على أعقابه، الأمر الذي اضطره إلى الاستسلام في ٢٤ أغسطس ١٢١٦. واشترط ريموند نظير فك حصاره المضروب على القلعة أن يقوم سيمون في المقابل بفك حصاره على مدينة بوكليير، ولكن هذا لم يلحق أى أذى مادى كبير بسيمون؛ لأن هذه المدينة كانت في الأطراف وبعيدة عن تحصيناته الحقيقية المتمركزة في كل من بيزيه وكاركاسون وتولوز. غير أن سقوط هذه المدينة في يد أعدائه كان بمثابة انتكاسة معنوية له؛ حيث إن قوات أوكيتانيا أثبتت كفاءتها وأنها لا تقل تنظيمًا عن قوات سيمون الفرنسية. وبدأ شعراء التروبادور يسخرون من سيمون، كما أن أعداءه عبروا عن شباثتهم فيه وبدءوا يحكون المؤمرات ضده.

أما مدينة تولوز معقل الهرطقة والمهرطقين فكانت لا تزال تحتفظ بوجدها وولائها القديم لكونت ريموند وتحمل المقت لسيمون، وسرعان ما نشب تمرد ضد سيمون في هذه المدينة؛ الأمر الذي أجبر جنوده على الاحتماء في الكاتدرائية. واستطاع المتمردون السيطرة على المدينة لفترة وجيزة غير أنهم سرعان ما انهاروا عندما أدركوا أن سيمون يحتفظ بعدد كبير منهم رهائن، وبأنه نجح في تدمير تحصيناتهم، وتدخل أسقف تولوز وراهب دير القديس سونين لدى سيمون لوقف الحرب، فوافق سيمون على العفو عن المدينة مقابل دية مقدارها ٣٠ ألف مارك.

ولكن واجه سيمون في عام ١٢١٦ وأوائل عام ١٢١٧ سلسلة من الثورات والتحديات المحدودة، غير أنه تصدى لها بكل ما أوتى من قوة، وشن حملات متصلة ومتلاحقة على المتمردين؛ الأمر الذي أنهكه وأنهك جيشه. وفي صيف عام ١٢١٧ استعاد سيمون قوته عندما وصلته إمدادات في الشمال مكنته من عبور نهر الرون بغية معاقبة أمراء مقاطعة پروانس الذين سبق أن عضدوا غريمه السابق في مدينة بوكليير، لكن مناوئى سيمون انتهزوا فرصة انشغاله بملاحقة أعدائه في پروانس وغيابه عن البلاد للنيل منه.

كانت مراحل الغضب من سيمون تغلى في مدينة تولوز التي وعدت حاكمها السابق ريموند السادس بتسليم نفسها له إذا جلب قوات كبيرة تمكنه من الاحتفاظ بها. وبالفعل جلب ما يحتاج إليه من قوات وانضم إليه في الطريق كونت فوا، وكونت كومنجز، وعدد آخر من النبلاء، وتوجه هذا الجيش، إلى تولوز ليدخلها في ١٣ سبتمبر ١٢١٧ دخول الظافرين، فرحب بمقدمه معظم أهالى المدينة واضطرت الحامية الفرنسية الصغيرة الموالية لسيمون إلى الاحتماء في قلعة ناربونية التي رأى ريموند السادس أنه من الحكمة عدم محاولة الاستيلاء عليها. وتهلل

أهل أوكيتانيا بعودة ريموند حاكمهم القديم وتغنوا بالأهازيج والأغاني الوطنية، وأيضًا انضم إلى جيش ريموند أعداء سيمون من الجنود الذين جردهم من ممتلكاتهم. وهكذا ولأول مرة توحدت أوكيتانيا التي اشتهرت بالتفكك السياسي والعسكري وتطلعت إلى قتال سيمون وجيشه من أجل الحصول على استقلالها. ومعنى ذلك أن سيمون بحملته الصليبية استطاع توحيد أوكيتانيا وإلهاب مشاعرها القومية.

كان سيمون دى مونتفورت في مقاطعة پروونس عندما علم عن طريق زوجته بأمر تمرد تولوز ضده، فسارع في الحال بالرجوع إلى هذه المدينة حاشدًا في طريقه ما استطاع من قوات، وأسرع بمهاجمة تولوز قبل أن يتمكن أعداؤه من تعزيز تحصيناتهم، غير أنهم استطاعوا أن يردوه على أعقابهم. ولم يكن في مقدور سيمون أن يضرب حصارًا حول تولوز بسبب اتساع رقعتها، وأدرك سيمون حرج وضعه العسكري فاستعان بالبابا أونوريوس الثالث كي يصدر نداء بضرورة مواصلة الحرب الصليبية ونصرة سيمون، ولكن وصول المتطوعين والمشاركين فيها من الخارج احتاج إلى وقت طويل. وبينما أدى فشل سيمون في اختراق تولوز إلى انخفاض روح جيشه المعنوية ارتفعت معنويات أعدائه من أهل تولوز.

وبحلول ربيع ١٢١٨ استطاع كل من الفريقين المتحاربين تعزيز قواته، وما إن عاد كونت تولوز ريموند السادس إلى أراضيه حتى هب أهلها لمناصرته رافعين الأعلام، واندفعوا نحوه كما لو كان قد قام من الأموات. وتهلل لمقدمه إلى تولوز الفقراء والأغنياء والشباب والشيوخ والأطفال والرجال والنساء وركعوا أمامه على الأرض، واغرورقت عيونهم بالدموع من فرط فرحتهم وتأثرهم بلقياه، وترجل الكونت ريموند السادس عن جواده عند دير القديس سيرنين تيمناً به؛ لأن هذا القديس رفض الوجود الفرنسي في أوكيتانيا. ودقت الطبول وأجراس الكنائس والفواخير، ولم ير سيمون بدءًا من مواجهة أعدائه الذين رموه بحجر شح رأسه فمات في الحال. ورغم ما عرف عنه من شجاعة وكفاءة عسكرية نادرة ومن صمود وقدرة على اتخاذ القرارات السريعة الحاسمة، فقد فشل في إنشاء مؤسسات في أوكيتانيا يمكنه الاعتماد عليها في كسب ود شعبها المهزوم.

وبموت سيمون دى مونتفورت انتهت أولى الحملات الصليبية الأليجنسانية، وتقلد ابنه أمورى إدارة الجيش بعد وفاته، غير أنه كان يفتقر إلى الزعامة فانفض عنه كثير من أتباعه. وزاد من إضعافه أن الكونت كومنجز تمكّن من طرد الحامية الفرنسية من بلاده، كما أن الكونت فوا

استولى على السهول الواقعة بين تولوز والجبال. وبعد موت سيمون وعجز ابنه أمورى عن قيادة جيشه، لم تر الكنيسة الكاثوليكية مناصباً من مناشدة فيليب ملك فرنسا التدخل لمساندة أمورى واعدة هذا الملك بدعم مالى كبير منها. وكان هذا بمثابة رشوة استمرها الفرنسيون وألحوا فى طلب المزيد منها لإنفاقها فى أغراض علمانية لا شأن للكنيسة بها.

#### مجزرة مارماند

وطلب الكرسي الباباوى من لويس ملك فرنسا تسيير حملة صليبية أخرى لمساندة أمورى ابن سيمون، فاستجاب الملك للطلب الباباوى على مضض بسبب الود المفقود بينهما. فقد أثارت كنيسة روما حفيظة هذا الملك عندما منعه من غزو إنجلترا، وفرضت عقوبات مالية باهظة كى ترفع الحظر الكنسى الذى فرضته عليه، ورغم أن الملك لويس وافق فى يناير ١٢١٩ على قيادة حرب صليبية تحت ضغط من البابا، فإنه كان فى قرارة نفسه عازفاً عنها وغير مقتنع بها. وانضم الجيش الفرنسى بقيادة الملك لويس إلى قوات أمورى لمحاصرة مدينة صغيرة تسمى «مارماند» حتى انتهى الأمر بها إلى الاستسلام وارتكبت فيها مجزرة تقشعر لها الأبدان؛ حيث إن القوات الفرنسية الغازية قطعت أوصال الكثيرين من أهل هذه المدينة لدرجة أنها تناثرت فى عرض الطرق كما أن الشوارع غرقت فى بحر من الدماء.

وبعد سقوط مارماند وتقطيع أوصال أهلها، قام الملك لويس بضرب الحصار على مدينة تولوز التى تصدت له وقاومته بشراسة؛ الأمر الذى أجبر لويس على فك الحصار والانسحاب والعودة إلى بلاده تاركاً أمورى بن سيمون فى حالة ضعف مزرية، وزاده ضعفاً على ضعف تخلى كثير من جنوده عنه، فضلاً عن أنه لم يكن يملك الأموال اللازمة لدفع رواتب المرتزقة الذين يستعين بهم فى حروبه. وتهاوت المدن التابعة لـ «أمورى» مدينة تلو الأخرى، وبهذه الهزيمة تقدمت قوات ريموند السابع بتأييد من كونت فوا للاستيلاء على المواقع التى سبق لسيمون أن استولى عليها، ولكن قوات ريموند السابع وكونت فوا تجنب الحرب فى المدن الحصينة مثل كاركاسون وناربون. وبهذا استطاع ريموند السابع الاستيلاء على كل البلاد التى كان والده قد خسرها فى حربه ضد سيمون، وفى عام ١٢٢٢ توفى ريموند السادس ولكن الكنيسة رفضت الصلاة على جثمانه لشكها فى هرطقته.

وحتى بعد أن مات ريموند روجر كونت فوا عام ١٢٢٣، خلفه وريث أشد ما يكون

تحمسًا ونصرة لعائلة كونت تولوز وعداء لعائلة سيمون. وعبثًا حاول البابا أونوريوس الثالث الدفاع عن أموري بن سيمون وتحسين صورته، فقد ازور عن هذا الدفاع أهل أوكيتانيا كما أن فرنسا تخلت عنه وانتهت الحرب بين أموري والموالين لكونت تولوز بعقد هدنة في ١٦ يناير ١٢٢٤ بعد أن اضطر أموري إلى تسليم منطقة الجنوب بعد انهزامه الساحق إلى حكم ريموند السابع الذي تمكن من احتلال كل من كاركاسون وبيزويه دون مقاومة. وبطرد النفوذ الفرنسي في أوكيتانيا واندحار سيمون وابنه، عاد الهراطقة هناك إلى سابق قوتهم. وبذلك تكون ريمة قد عادت إلى عاداتها القديمة، وتكون الحملة الصليبية الألبيجنسانية ضد الهراطقة قد منيت بهزيمة نكراء.

### الكنيسة الكاثوليكية ترفض الهزيمة وتسعى إلى اجتثاث الهراطقة

قلنا إن الهراطقة ازدهرت بشكل ينذر بالشر عندما لحقت الهزيمة بـ «أموري بن سيمون» على يد ريموند السابع كونت تولوز الجديد. واستاء البابا استياء شديدًا من شدة انتشار الهراطقة، فقد كان يأمل في اقتلاعها من جذورها الضاربة في أوكيتانيا عامة وتولوز خاصة. ورأى البابا أونوريوس الثالث أنه من الضروري شن حملة صليبية أخرى تهدف إلى إرغام ريموند السابع على استئصال الهراطقة في بلاده، ولم يكن هناك من يستطيع شن حملة صليبية غير ملك فرنسا لويس الثامن. غير أن عامي ١٢٢٣ و ١٢٢٤ لم يكونا الوقت المناسب بالنسبة للويس لشن هذه الحرب، ففي منتصف عام ١٢٢٣ كان ملك فرنسا فيليب أغسطس محتضر، وفي النصف الثاني من ذلك العام انصرف خلفه لويس الثامن إلى ترتيب أحواله وحاول إعادة الأمن والاستقرار إلى مدينة بواتو المضطربة والتي كان نبالؤها في أحيان كثيرة يناصرون إنجلترا ضد فرنسا. واستطاع لويس الثامن أن يكسر شوكة مدينة بواتو، كما استطاع بعد عام ١٢٢٤ الاستيلاء وإحكام قبضته عليها، وبسقوط بواتو في يده كان في مقدوره تسيير حملة عسكرية ضد الجنوب.

وجرت مفاوضات بين البابا أونوريوس الثالث و لويس الثامن اشترط فيها لويس شروطًا قاسية مقابل اشتراكه في شن حملة صليبية على الجنوب، وتلخصت شروطه في أن تتحمل الكنيسة معظم تكاليف الحملة وأن يسيرها في الاتجاه الذي يريد، وأن يضم إلى ممتلكاته الأراضي التي يستولى عليها. وباختصار أراد لويس الثامن اختزال الحرب بالهجوم السريع على مدن تولوز و كاركاسون وبيزويه وعدم إضاعة حياته مثلما فعل سيمون دي مونتفورت في

محاربة سائر أمصار الجنوب. وكذلك صرح هذا الملك بأنه في حالة ذهابه إلى الجنوب فسوف يستولى على كل ممتلكات سيمون موننفورت. وانزعج البابا من هذه المطالب وشعر بعدم الارتياح تجاه صاحبها، وخاصة لأنه كان يسعى إلى تعيين حاكم شديد الولاء له في كل من تولوز وكاركاسون، فضلاً عن أنه أراد من هذا الملك أن يفعل شيئاً أعظم يتلخص في قيادة حملة صليبية كبيرة لاسترجاع بيت المقدس.

وعلى أية حال رفض البابا مقترحات لويس الثامن واقترح عليه أن يقوم بترويع ريموند السابع حتى يقبل التصالح مع الكنيسة، وغضب الملك من اقتراح البابا بأن يلعب دور البعبع، ولكن مجرد وجوده ووجود جيوشه الحاشدة على حدود أوكيتانيا كان كافياً لإثارة الذعر في قلب ريموند كما كان البابا يتمنى؛ الأمر الذي اضطره إلى السعي لاسترضاء الكنيسة.

وجرت مفاوضات بين الكنيسة وريموند السابع على غرار المفاوضات التي سبق أن جرت بين الكنيسة ووالده ريموند السادس، وهى مفاوضات انتهت إلى التعثر والفشل. وعجز ريموند السابع أن يقنع الكنيسة بإخلاصه وولائه لها رغم أنه بذل كل جهده لإثبات حسن نواياه، فقد وعد بمعاينة المهترطين وطردهم وإصلاح أية أخطاء يكون قد ارتكبها في حق الكنيسة، ودفعت تعويض كبير لـ «أمورى» على سبيل الترضية. وقام ريموند السابع بإعادة مدينة آجد إلى الأسقف الذى كان يملكها أصلاً، فضلاً عن أنه دفع تعويضات مناسبة إلى الكرادلة الذين سبق له الإضرار بمصالحهم. وبالفعل سعى ريموند السابع إلى ممارسة شىء من الضغط على المهترطين، ولا غرو فقد كان لا يعطف عليهم بنفس قدر عطف والده عليهم، وأراد بذلك تحسين صورته أمام الكنيسة. وقد أمضى ريموند السابع معظم النصف الثانى من عام ١٢٢٤ فى التفاوض مع رئيس أساقفة ناربون أرنود أمورى واعدًا باتباع أية أوامر يصدرها البابا إليه وطالبًا الصفح من الكنيسة، ولكن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح. فبحلول نهاية عام ١٢٢٤ بات من الواضح أن البابا أونوريوس يناصبه العداء، ولا غرو فقد كانت الكنيسة لا تزال تدين بفضل عائلة سيمون عليها واستبسالها فى الدفاع عن مصالحها. ولا شك أن البابا تأثر برأى كرادلة وأساقفة أوكيتانيا الذين أجمعوا على معارضة ريموند السابع، والذين شكوا فى تساهله مع المهترطين على نحو ما فعل والده من قبل.

كانت كنيسة روما آنذاك تتوق إلى مساندة لويس الثامن ملك فرنسا لها، ولهذا كرر البابا طلبه منه قيادة حرب صليبية جديدة، وقرر لويس الاستجابة إلى طلب البابا بعد كثير من التردد

والتذبذب. ومن جانبهم مهد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الطريق إلى ذلك بإزالة أسباب سوء التفاهم الذى شاب فيما مضى علاقة البابا بالملك لويس، وعقد كرادلة فرنسا مجلسًا لإدانة ريموند السابع لتبرير هجوم لويس ملك فرنسا عليه. وفى ٣٠ نوفمبر عام ١٢٢٥ عقد رجال الإكليروس الفرنسيون اجتماعًا فى مدينة بوج رفضوا فيه طلب ريموند السابع صفح الكنيسة عنه بدعى أنه لم يقدم الوعود الكافية لطاعة أوامرهما. وفى اجتماع آخر فى يناير ١٢٢٦ تجدد فرض الحظر الكنسى عليه وعلى حاشيته وكذلك على كونت فوا وفايكونت بيزيه. وأكدت الكنيسة أحقية ملك فرنسا فى الحصول على كل أراضى ريموند السابع حتى تغرى هذا الملك بشن الحرب الصليبية التى تريدها، وفى ٣٠ يناير ١٢٢٦ تعهد ملك فرنسا بإعداد هذه الحملة. وحتى يخطب الكرادلة وده استجابوا لكل الشروط التى سبق أن أملاها على البابا عام ١٢٢٤، ولكنهم وفروا على البابا الحرج بأن قاموا بأنفسهم بتقديم ما طلبه الملك لويس من مطالب مثل إعطائه حرية ترك الحملة وقت ما يشاء، وتعهدت كنيسة فرنسا بدفع عُشر دخلها له لمدة خمسة أعوام وهو مبلغ أكبر بكثير من المبلغ الذى سبق أن طلبه عام ١٢٢٤.

وفى مايو عام ١٢٢٦، حشد الملك لويس جيشًا كثير العدد والعدة فى مدينة بوج، الأمر الذى أدخل الخوف فى قلوب أهل أوكيتانيا لدرجة أن الكثيرين من أمرائهم سارعوا بتقديم فروض الطاعة والولاء له، وتخلّى كثير من المدن عن مساندة ريموند السابع وانضمت إلى جانب لويس الثامن ابتداء من مدينتى بيزيه وكاركاسون حتى ميناء مارسيليا. غير أن تولوز أظهرت تحديًا له، وسأيرها فى هذا التحدى عدد قليل من البلدان الواقعة فى غرب أوكيتانيا، ولكن كان من الواضح أن كفة ملك فرنسا هى الراجحة، ومع ذلك فقد واجه مقاومة شديدة فى مدينة أفينيون التى ظلت تحتفظ بشيء من الود نحو ريموند السابع. ظلت أفينيون تقاوم الحصار الذى فرضه ملك فرنسا عليها فى ١٠ يونيو ١٢٢٦، وطال أمد الحصار فحاول لويس اقتحام المدينة ولكنه فشل، فعاد إلى مواصلة الحصار حتى أنهمك قوى أفينيون وأرغمها على الاستسلام فى ٩ سبتمبر ١٢٢٦، فدفعت له تعويضًا متواضعًا قدره ستة آلاف مارك.

وأدى سقوط أفينيون فى يد الفرنسيين إلى وجودهم الدائم فى الجنوب واستيلائهم على مقاليد الحكم هناك. وعقب سقوط أفينيون انهارت مقاومة أوكيتانيا، واستسلمت مقاطعة پروفس للبابا وقبلت وجود حاميات فرنسية فيها، وبعد ذلك اتجه الملك لويس إلى كاركاسون دون مقاومة. غير أن استسلام أفينيون الذى بث الخوف والفرق فى قلوب أهل أوكيتانيا عجز

أن يحطم تصميم ريموند السابع وأهل تولوز على المقاومة، ولكن حصار الجيش الفرنسى لأفنيون لفترة طويلة فتّ في عضده وكبده خسائر فادحة. وعندما أدرك ملك فرنسا أن ريموند السابع يتميز بتحصينات قوية في تولوز، قرر عدم مهاجمتها والرجوع إلى بلاده ثم العودة منها في العام القادم لشن هجوم عليها، ولكن المرض العضال داهمه عند عودته إلى بلاده فمات في ٨ نوفمبر ١٢٢٦ ليخلفه لويس التاسع (الملقب بالقدّيس لويس)، الذى كان طفلاً عند وفاة والده، وتولت أمه بلاتش كاستيل مقاليد الأمور بعد وفاة زوجها لويس الثامن، ولكن أشرف البلاد تمردوا عليها؛ لأنهم كانوا يطمعون في استرداد ما فقدوه من استقلال. وبسبب هذه القلاقل اضطرت فرنسا إلى تعليق حملتها الصليبية واكتفت بلاتش كاستيل بترك قوة ضاربة في الجنوب كافية لردع ريموند السابع ومنعه من إثارة المتاعب لها.

غير أن ريموند السابع ظل يحتفظ بسيطرته على تولوز والأراضي الواقعة في شامها، في حين أن ملك فرنسا احتفظ بسيطرته على مدن ألبى وكاركاسون وبيزويه وجميع البلاد الممتدة شرق منطقة ترانكاويل حتى مدينة بوكير على نهر الرون. ولم يكن أهل أوكيتانيا في هذه المرة على استعداد لخوض المعارك إلى جانب ريموند السابع مثلما كانوا عقب وفاة سيمون دى مونتفورت، فقد سئمو القتال وشعروا بالإرهاك من كثرة الحروب. وفي عامى ١٢٢٧ و١٢٢٨ تطلع أهل أوكيتانيا إلى عقد معاهدة سلام دائم مع الفرنسيين على أساس الاعتراف بالحدود القائمة آنذاك، والتقى ريموند السابع الفرنسيين في مؤتمر عقد في مدينة مو في ديسمبر عام ١٢٢٨ استمر إلى يناير ١٢٢٩، وأبرموا معاهدة سلام تم التصديق عليها في باريس يوم ١٢ أبريل عام ١٢٢٩.

كانت شروط هذه المعاهدة قاسية بالنسبة لريموند السابع. ولكنها رغم قسوتها أفادته في أمرين: أولهما: تصالحه مع الكنيسة. وثانيهما: الاعتراف به رسمياً كونت تولوز. وبطبيعة الحال لم يكن رضاه الكنيسة عنه ممكناً لولا أنه تاب وارعوى ووعد بملاحقة الهراطقة وإنزال العقاب بهم. ودليلاً على عزمه على مطاردة الهراطقة أعطى كل من يقبض على مهرطق ماركين (تم تخفيضها فيما بعد إلى مارك واحد)، وأيضاً أعطى ريموند السابع للكنيسة مبلغ أربعة عشر ألف مارك على سبيل التعويض. وكذلك تعهد ريموند بدفع أربعة آلاف مارك مرتبات لأساتذة اللاهوت وفقهاء القوانين الكنسية الوافدين إلى تولوز بهدف ترسيخ المؤسسة الكاثوليكية في بلد اشتهر بانتشار المهرطقين، الأمر الذى أثمر في النهاية إقامة جامعة تولوز. وأراد ريموند

السابع توثيق عرى المودة بملك فرنسا فزوج ابنته من ألفونس شقيق هذا الملك. واستتب الحكم لملك فرنسا بعد أن تمكّن من القضاء على جيوب المقاومة التي اعترضت طريقه من وقت إلى آخر، مثل المقاومة التي بذلها فايكونت ترانكاويل عام ١٢٤٠ لاسترداد الأراضي التي فقدتها عائلته.

وفي عام ١٢٤٢، قام ريموند السابع بتمرد جديد أصاب قدرًا محدودًا من النجاح وزاد من مشاكله ارتكاب مجزرة لمجموعة من محققى محاكم التفتيش في مدينة صغيرة في جنوب شرق تولوز تدعى أفيجنونيت. وزاد من مشاكله أن المجزرة وقعت في أراضيه وأن أحد موظفيه أعطى الأمر للمهرطقين بالهجوم على المحققين، وفي الحال فرضت روما الحظر الكنسى على ريموند السابع وبدأت الكنيسة تفكر في شن حرب صليبية أخرى، وانفض أتباع كونت ريموند عنه معلنين ولاءهم لملك فرنسا لويس التاسع. وأدرك ريموند عدم جدوى الاستمرار في المقاومة فاستسلم للويس التاسع الذى أنزل به عقابًا مخفّفًا لإدراكه أنه لم يعد مصدر خطر. وكانت هذه هي المرة الأخيرة التى انخرط فيها ريموند السابع في تمرد ضد ملك فرنسا، وقد أمضى ريموند السابع البقية الباقية من حياته في البحث دون جدوى عن زوجة تلد له ذكرًا يرث ملك تولوز من بعده، كما أنه سعى إلى استرضاء الكنيسة باضطهاد الهرطقة والتنكيل بهم.

وثأر ملك فرنسا للمجزرة التى أطاحت بمحققى محاكم التفتيش في أفيجنونيت، فاستولى على قلعة أشد ما تكون تحصينًا هي قلعة مونتييجور التى كان الأرسطراط المهرطقون يحتمون فيها. ولم يكن الاستيلاء على هذه القلعة بالأمر الهين؛ فهي تقع فوق أحد جبال الپيرينيز (البرانس) ولا سبيل إلى الوصول إليها سوى عن طريق ممر وعر شديد الانحدار وكثير المنحنيات، واستغرق حصار الجيش الفرنسى بقيادة هيو لهذه القلعة عامًا كاملًا من مارس ١٢٤٣ حتى مارس ١٢٤٤ وفى زمهرير شتاء بالغ القسوة. وحين تم القبض على المهرطقين الذين يحتمون بهذه القلعة خيروا بين نبذ هرطقتهم أو الموت حرقًا. ففضل مائتان منهم من الرجال والنساء الموت حرقًا فرحين جذلين، على خيانة عقيدتهم الدينية المهرطقة.

وكان سقوط معقل مونتييجور الضربة القاضية التى شتت المهرطقين الكاثارين، بحيث لم تقم لهم أية قائمة بعد عام ١٢٤٤. وبسحق المهرطقين تعزز حكم العائلة المالكة الفرنسية، وبموت الكونت ريموند السابع فى سبتمبر ١٢٤٩ آلت أملاكه إلى لاونس كونت بواتيه وشقيق ملك فرنسا وزوج ابنة ريموند السابع الذى أنجب منها طفلة. وحكم ألفونس تولوز

من باريس ولم يظهر في الجنوب إلا في عام ١٢٧٠ وهو يقود حملة صليبية متجهة إلى تونس. وعندما توفي ألفونس وابنته (بدون نسل) في عام ١٢٧١ بعد عودتهما من الحملة الصليبية، آلت جميع أراضيها إلى ملك فرنسا الجديد الذي خلف لويس التاسع. وإنها لمفارقة ما بعدها مفارقة أن تؤول الأراضي التي قاتل سيمون دي مونتفورت لعدة سنوات من أجل الحصول عليها والتي حارب ريموند السابع حرباً مريرة من أجل الحفاظ على بعض منها إلى العائلة المالكة الفرنسية بكل هذا اليسر وهذه السهولة. هذه المفارقة جعلت المؤرخ لوتشير يكتب في عام ١٩٠٥ قائلاً: «كل واحد ابتداء من البابا إينوسنت الثالث فصاعداً جاهد وكافح وتعذب دون أن يدرك أنه يعمل لصالح ملك فرنسا».

هذه هي الظروف التي نشأت فيها محاكم التفتيش في فرنسا والتي فصلناها في كتابنا «محاكم التفتيش» - دار الهلال ٢٠٠٢.

\*\*\*